

قصص الصحابة

الغلام الذي اختار الجنة

سلوى العناني

دار اللطائف
للنشر والتوزيع

مقدمة

نحنُ اليوم مع مجموعةٍ من الأطهارِ التي اِلْتفَّتْ حول أطهرِ خَلْقِ الله ..

إنهم قومٌ باعوا الحياةَ ، واشتروا رضوانَ الله ، ورسولِه ..

قومٌ تركوا متاعَ الدُّنيا خلفَهم ، ويَمَّمُوا شطرَ الرسالةِ العُظمى.. فقدموا حياتَهم ، وأموالَهم ثمنًا لعقيدةٍ فيها خلاصُ الإنسانية .

هؤلاء هم صحابةُ رسول الله الذين عاشوا معه .. رأوه ، وأسلموا بين يديه .. وأعلنوا إيمانَهم بالله الواحدِ الأحدِ ، وبمحمدٍ رسولا ، وصدَّقوا بكل ما جاء به ..

لقد هداهم عقلُهم ، وبصيرتُهم إلى الطريقِ القويم ، واقتنعوا بأنهم كانوا في ضلال .. وآمنوا بأنَّ ما جاء به محمدٌ إنما هو الحقُّ .

كانوا يعرفون محمدًا .. رجلاً فقيرًا أميًّا يتيمًا .. ملأت سيرتُه العطرةُ أسماعَ قريشٍ ، وأبصارهَا فسمُّوه (الأمين) ..

لا يذكر له أحدٌ كَذِبًا أو خيانةً أو شُحًّا .. كلُّ ما يعرفونه عنه كانَ الصدقَ ، والكَرَمَ ، والعِفَّةَ ، وحُسْنَ الحديثِ وخَيْرَ الجوارِ.. فلماذا لا يصدقونه ، وهو الصادق؟!.. ولماذا لا

يتبعونه وهو الأمين؟!

لماذا لا يسمعونه ، وهو الذي لم يعرف غير الحق ؟!

آمنوا به .. واتبعوه وصَدَقُوا ما عاهدوا الله عليه ..

لا شك أنها خَيْرَةٌ ما بعدها خَيْرَةٌ..

فأنت وسط البستان المُزْهر .. والشَجَر المثمر .. والنجوم المتلألئة .. فأيها تختارُ ؟ ومع أيها تقفُ ؟.. وعن أيها تتحدثُ؟

كوكبةٌ من الأطهار .. ومجموعةٌ من الأبرارِ .. وأمةٌ من الأخيار.. فأيها أختار؟!

تمنيت لو استطعتُ أن أقدمهم جميعا لأصدقائي ، وأن أعرِّف أبنائي بهذه الصُحْبَةِ الطيبةِ المباركة .. لكن أيُّ كتابٍ يكفيني؟ وأي أوراق تَسَعُ كلماتي؟

كان لابدَّ من الاختيار .. واخترت .

ليس لأن هؤلاء هم خيرةُ الصحابةِ .. ولا أكرمُهم ، ولا أشجعُهم ، ولا أقواهُم إيمانا .. لا .. لكن لأني مقيدةٌ بعدد هذه الصفحات ؛ فوقفت مع البعضِ أقدمهم لك يا صديقي نموذجا للإيمان ، والصدقِ ، والصفاءِ ، والنقاءِ .

سلوى

الغلام الذي اختار الجنة

(زيد بن حارثة)

[ما أنا بالذي يختارُ عليك أحدًا ، أنت الأبُ ، والمعلمُ]

زيد بن حارثة

كانت عادةُ (التبني) من العادات المنتشرة بين العــرب في الجاهلية .

وهذا يعني أن الشخصَ يَنْسِبُ إليه ولدا من غير أبنائـه فيعطيه اسْمَه ، كما يعطيه الحقَّ في أن يرثه ..

وكان هذا لا شكَّ تعبيرا عن اعتزازِ هذا الشَّخْصِ بِمَنْ تبناه ، وضمَّه إلى أسرته دون وجود رابطة دم بينهما .

كان لابد من هذه المقدمة قبل أن نتعرفَ على واحدٍ مــن أحبِّ صحابةِ رسولِ اللهِ إلى قلبه .. حتى أنهم أطلقوا عليـه اسم (حِبُّ رسولِ الله) .. وهو (زيدُ بنُ حارثةَ) الــذي لازمَ الرسولَ منذ كان صبيا صغيرا .. فمن هو زيد بن حارثة ؟

كان زيدُ ابنا سعيدا يعيش في كَنَفِ أبوين يحبانه ويرعيانه

إلى أن تعرضت ديارُهم لغارة إحدى القبائل المعادية التى انتزعت الصغيرَ من حُضْنِ والديه ، وأَسَرَته ضِمْنَ مَنْ أُسِرَتْ من الغلمان ، ثم باعتهم رقيقا في سوق العبيد .

ويشاء الحظُّ أن يقع اختيارُ "حكيم بن حزام" على هذا الغلامِ القصيرِ الأسمرِ ذي الأنف الأفطس فيشتريه ، ثم يهبه لعمته "خديجة بنت خويلد" ..

وينفتح قلبُ المرأةِ العظيمةِ لهذا الغلامِ الذي تَشعُّ عيناه ذكاء ، وفطنة ، وتخصُّه برعاية ، وحُبٍّ خاص ، ثم يتضح لها مع الأيام قَدْرُ أمانته ، وإخلاصه فتهبه بدورها لزوجها (الأمين) (محمد بن عبد الله بن عبد المطلب) .. وما إن يرى محمدٌ هذا الغلام إلا ويشعر نحوه بالحب والتقدير ، فيعتقه فورا .

ويعيشُ (زيد) فى كَنَفِ (محمدٍ) وتظهر الأيامُ نقاءَ معدنه ، وذكاءه ، وإخلاصه ، وصدقه ، وأمانته ، ويزداد (محمد) تعلقا به ، ويضاعف رعايته له ، وعطفه عليه ..

ويلتقى بعضٌ من أهلِ (زيد) به فى أحد مواسم الحج ، ويعرفون أنه ابن (حارثة) الذى فقده أبواه منذ سنوات ..

فوصفوا له كيف يتعذَّبُ والده لفراقه .. فَحَمَّلهم (زيد) سلامه ، وشوقه لوالديه ، وكل عشيرته ، كما حمَّلهم رسالة خاصة لوالده يقول فيها : (أخبروا أبى أنى هنا مع أكْرمِ والد) ..

ويطير قلبُ الوالد (حارثة) فرحا بهذه الأخبار التى وصلته عن ابنه (زيد) ويشد الرحال ومعه شقيقه إلى مكة ويلتقيان بالنبى محمد صلى الله عليه وسلم فقال له (حارثة) :

ـ يا بن عبد المطلب .. يا بن هاشم .. يا بن سيد قومه ، أنتم أهلُ حَرَمِ الله وجيرانه ، تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ، جِئناك وابننا عندك فامْنُنْ علينا ، وأحسن إلينا فى فدائه .

سأل النبى عليه السلام : ومن هو ؟

قال (حارثة) : هو (زيد بن حارثة) .

فرد عليه السلام : فهلا غير ذلك ؟

قال حارثة : وما هو ؟

قال النبى : "ادعوه فأخيِّره .. فإن اختاركم فهو لكم ..

وإن اختارنى، فو الله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى أحدًا".

واهتزت مشاعر (حارثة) وشقيقه لمقالة رسول الله وشكرا له كرمَه وحُسْنَ خُلقِه .. وأرسل النبىُّ فى طَلَبِ (زيد) وقال له:

ـ هل تعرف هؤلاء ؟

قال: نعم .. هذا أبى وهذا عمى ..

قال له النبى: فأنا مَنْ قد علمت ورأيت صُحبتى لك، فاخترنى أو اخترهما.

قال زيد: ما أنا بالذى أختار عليك أحدًا .. أنت منى مكان الأب والعم.

وثار الأب والعم وقالا لزيد: ويحك أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟!

قال زيد: نعم قد رأيت من هذا الرجل شيئا.

ثم اتجه بالحديث إلى النبىِّ ـ عليه السلامُ ـ قائلا:

(ما أنا بالذى يختار عليك أحدًا. أنت الأب والمعلم).

يا لها من نجابةٍ ، وذكاءٍ ، وقوة شخصيةٍ .. فها هو الصبىُّ يعثرُ على والديه بعد طول فراق .. لكنه يختار عليهم الرجلَ الذى أحبه ، ولم يجدْ منه إلا كريمَ الصُّحبة وحُسْنَ المعاملة ..

هنا توجه محمدٌ إلى ساحة الكعبةِ مُمسِكًا بيدِ (زيد) مُعلنا للجميع أن "اشهدوا أن (زيدًا) ابنى يرثنى وأرثه" .

ومن ساعتها أصبح (لزيد بن حارثة) اسما جديدًا هو (زيد بن محمد) .. وكان (زيد) جَدُّ سعيدٍ بهذا الأب الذى أحبه وفَضَّلَ صُحبته على العودة إلى قبيلته ، وأسرته ، ووالديه .

وتزيد الأيامُ (زيدًا) حُبًّا (لمحمدٍ) كما تزيدُ (محمدًا) رعاية ، وعَطْفًا على (زيدٍ) الذى كان يرى فى خِصَال (محمد) ، وفى أخلاقه نموذجًا نَدَرَ أن يوجد بين البشر . فهو أمينٌ كريمُ العشرةِ ، ثابتُ العزيمةِ ، قوىُّ الإرادةِ ، شديدُ البأسِ ، كاملُ الوفاءِ ، صادقُ المودةِ ، يصل الرَّحِمَ ، ويحسنُ معاملةَ كلِّ مَنْ حوله .. كما كان يراقبه ، وهو يعتكف للتعبُّدِ فى غار حِراء يقضى الأيامَ صائما مكتفيا بالقليلِ من الزاد ، متأملاً باحثًا عن الحقيقة ..

ويأتى (محمدٌ) بالبشارة .. بالدعوةِ إلى الحقِّ .. إلى الإسلام، وتكون (خديجةُ) الزوجةُ الوفيةُ الرحيمةُ هى أول من يصدّق (محمدًا) من النساءِ وتعلن إسلامها ويكون (علىّ ابن أبى طالب) ابنُ عمِّ النبىِّ عليه الصلاةُ والسلامُ، والذى كان يعيش فى كَنَفِ (محمدٍ) هو أول صبى يؤمن بابن عمه (محمد الأمين) ويعلن إسلامه .. وكذلك (زيد) فقد رأى أن محمدًا، وزوجته (خديجة)، وابن عمه (علىّ) يؤدون صلاة خاصة، ويرتلون كلاما له طَعْمٌ خاصٌّ، سأل عن ذلك فأبلغه (محمد) أن الوحى قد جاءه، وأمره أن يبشّرَ بدين جديد هو الإسلام، وأن (جبريل) يأتيه بين الحين والحين بآيات مُحكمات - من أم الكتاب - وهذا هو القرآن ..

ولم يكن هناك مجال للتردد، أو المناقشة .. (فزيد) يعرف عن (محمد) كل الخصال الطيبة العظيمة، ولا يمكن أن يكون ما يقوله اليوم غيرَ الصدق .. كل الصدق .. إذن فهو الإيمان .. هو الإسلام .. هى الشهادة .. ونطق (زيد) بالشهادة ..

أشهد أن لا إلهَ إلا الله .. وأن محمدًا رسولُ الله ..

ويكون (زيدُ) هو ثالثُ من آمَنَ بمحمد واعتنق الإسلام دينا ..

ويزداد (زيدُ) (بمحمدٍ) ارتباطا ..

ويزدادُ (محمدُ) (لزيد) حُبا ..

ولم لا .. وهذه الأيام تُظهر فى كل فرصة فضيلةً جديدةً من فضائل هذا الفتى الذى قرَّبه الرسول من قلبه ، ومن مجلسه .. ورفع عنه كابوس العبودية واختلاف اللون ، وغياب الوسامةِ ، والوجاهة؟!

إنه نبىُّ الإسلام الذى أتى بالمساواة ، والأخوة بين كل البشر، فلا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى.. وإن أكرمكم عند الله أتقاكم ..

وإلى (يثرب) يهاجر (زيد) مع من هاجر من المسلمين ، ثم يشارك فى كل الغزوات ، والحملات العسكرية للمسلمين .

وبأمر من القرآن الكريم يعود إلى (زيد) نَسَبُه الحقيقى :

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ

﴿يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ [الأحزاب : 4-5]

هكذا يحفظ القرآنُ للناس أنسابهم .. ويظل (زيد بن حارثة) حِبَّ رسول الله) وأقربَ الناس إلى قلبه حتى قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : (ما بعث رسول الله زيدَ بنَ حارثةَ في الجيش قط إلا أمَّره عليهم .. ولو بقى حيا بعد رسول الله لاستخلفه) .

كان العربُ ينظرون إلى (الموالى) – وهم الرقيق المحرر – فى درجة أدنى من السادة الأحرار .. فهم لا ينسون ماضيهم ولا يغفرون لهم وضعا ليس لهم فيه يد .. لهذا لم يكن من حق هؤلاء الموالى التقدم لبناتِ الأُسر الكريمة طلبا للزواج منهن ..

لكن الإسلام أتى بالفكر الجديد وبالمبادئ الحرة وبأن الناس سواسية كأسنانِ المشط وبأن أكرمكم عند الله أتقاكم ..

وأراد النبيُّ أن يحقق هذه المساواة بشكل عملى فزوَّجَ

(زيدَ بنَ حارثـةَ) مـن إحدى شـريفات بنى هاشم وهـى (زينب بنت جحش).

وهكذا ضرب النبىُّ المثلَ وكان الأسوة الحسنة .

وتزوج (زيد) من (زينب) .. لكنه لم يكن زواجا موفقًا .. وتم الطلاق بينهما ..

ولما مَرَّت بزينب (شهور العدة) طلبـها النبىُّ للـزواج .. وكان هذا مُخالِفًا لما اعتادت عليه العربُ مـن تحريم زواج مطلقـات الأدعيـاء .. لكـن القـرآن نـزل بـالوحى ليبيـح للمسلمِ الزواجَ ممن كُنَّ أزواجًا لأدعيائهم ..

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً﴾ [الأحزاب : 37] .

هذا هو العامُ الثامنُ للهجرة .. وهذا هـو شـهر جُمادى الأولى.. وها هو الرسولُ عليه السلام يدعو إليه ثلاثة آلاف من خِيْرة رجالِ المسلمين بقيادة (زيد بن حارثة) .

وودَّع الناسُ أمراءَ الجيشِ، وجنودَه ، وسـار النبـىُّ معـهم حتى ابتعدوا عن حدود المدينة ، وقد أوصاهم بقيادة الجيش

بعد (زيد) (لجعفر بن أبى طالب) ، وبعده (لعبد الله بن رواحة) .

نعم .. كان (زيدُ بن حارثة) هو القائد .. هذا الرجل الأسمر اللون ، القصير القامة ، غير الوسيم ، الذى كان يوما ما عبدا ومن الرقيق .. يتولى قيادةَ الجيش قَبْلَ (جعفر ابن أبى طالب) ابن عم رسول الله .. هذا الفارسُ الحسيبُ ، النسيبُ ، الوسيمُ ، التقىُّ ، النقىُّ ، الذى كان أقرب خلق الله إلى رسول الله فى الخُلُق ، والخِلْقة .. لكنه الدين الجديد .. الإسلام .. الدين الذى لا يعرف محاباة ، ولا مجاملة .

الدين الذى أراد نبيه فى كل يوم أن يثبت مبادئه الجديدة الحَقَّة ..

وكان من بين جنود هذه الحملة (خالد بن الوليد) فارسُ العرب ، سيفُ الله المسلول كما سمَّاه النبى الكريم .. وكان حديثَ عهدٍ بالإسلام .. وأراد بهذه المشاركة أن يثبت حُسْنَ ولائه للإسلام ..

كانت هذه الحملة تتجه إلى حدود بلاد الشام مع بلاد

العرب التى كانت واقعة تحت حُكْم الروم .

وكان الروم قد أحسوا بخطر الدعوة الجديدة الآتية من بلاد العرب، وبدءوا يناوشون المسلمين ، ويستعرضون قوتهم ، فكان لابد أن يَرُدَّ المسلمون على هذا الموقف .. ورغم الفارق الكبير فى العدد ، والعُدة .. إلا أن المسلمين كانوا يشعرون وكأن كل محارب فى جيشهم يساوى مئة فى الجيش المقابل ؛ بما يملأ قلوبهم من الإيمان ، والعزيمة ، والرغبة فى الدفاع عن دينهم الحق ..

وسار جيشُ المسلمين فى ثلاثة آلاف ليقابل ثلاثمائة ألف من المقاتلين الروم فى (مؤتة) ..

وكانت معركة غير متكافئة .. لكن الإيمان من جانب المسلمين دفعهم إلى اقتحام خصومهم يطلبون النصر ، أو الشهادة ..

ويسقط (زيدُ بن حارثة) فى اليوم الأول شهيدا بعد أن أبلى بلاء حسنًا ..

ويرفع الراية (جعفرُ بن أبى طالب) من بعده ليلحق به فى عالم الشهادة .. ثم يتبعهما (عبد الله بن رواحة) .

كرام ثلاثة .. قدموا حياتهم فى سبيل نصرة دينهم ..

وتولى (خالد بن الوليد) قيادة الجيش من بعدهم .. فاستخدم دهاءه العسكرى ، وأوهم الروم أن هناك مَددًا كثيرا قد أتاه من المدينة ، فأدخل فى قلوبهم الرُّعْبَ ، فتوقفوا عن القتال خَشْيَة مضاعفة خسائرهم التى أوقعها بهم المسلمون فى اليوم الأول .

وأخذ (ابن الوليد) قرار العودة مُكتفيا بما فَقَدَ الجيشُ من خِيْرَةِ صحابةِ الرسولِ الكرام مؤمنًا بعدم تكافؤ جيشه مع جيش الروم فى العدد ، والعدة ..

ويعلم النبىُّ الكريم بمصرع (زيد) ، و(جعفر) و(ابن رواحة) .. ويُخبرُ أنهم فى الجنة جزاء لما بذلوه فى سبيل نُصرة الحق ، وإعلاء راية الإسلام .

رَحِمَ الله (زيدًا) .. فقد كان نِعْمَ الصديق ، ونِعْمَ الرفيق .. ونِعْمَ الصحابى المؤمن التقى .